الموروث الدّيني في ديوان " كاف ونون " للشّاعر: علالة القنوني*

د. سامية عليوي+ مريم زياني
جامعة عنّابة– الجزائر

الملخّص:

يزخر ديوان "كاف ونون" للشّاعر التّونسي علاّلة القنّوني بموروثات دينية (توراتية، إنجيلية، وقرآنية)، ويسعى هذا المقال إلى تقصّي الأصول الدّينية التي اعتمدها الشّاعر في توظيفاته الفنّية.

واتّضح من خلال الدّراسة أنّ النّصوص القرآنية كان لها الحظّ الأوفر من التّوظيف، حيث استقى الشّاعر مادّته من الشّخصيات الإسلامية، ومن آيات قرآنية عديدة، ثمّ تأتي النّصوص التّوراتية بعد ذلك، وأخيرا النّصوص الإنجيلية.

كما اتّضح أنّ الشّاعر لم يكتفِ بالتّوظيف التّضميني، وإنّما أسقط الموروثات الدّينية المختلفة على الواقع المعيش منتقدا بها الأوضاع العربية المتردّية سياسيا واجتماعيا.

Résumé :

Le recueil de poèmes intitulé « Kef wa Noun » de Allala El Guennouni regorge d'éléments religieux (Bibliques, Evangéliques et Coraniques). Cet article vise à explorer ces éléments religieux utilisés par le poète dans ses constructions poétiques.

A partir de cette étude, on souligne que les éléments Coraniques sont les plus répandus chez le poète, puis les éléments Bibliques, et pour finir les éléments Evangéliques.

On souligne aussi, que le poète s'est inspiré des textes religieux pour critiquer le vécu actuel Arabe politique et social.

تمهيد:

خاض الشّعراء المعاصرون رحلة بحث وتنقيب عن مساحة رحبة وشاسعة، تتّسع لعمق تجاربهم، وعن كاهل يقوى على حمل أوزارها، في زمن تعمّق فيه الوعي بمأساة الواقع وهموم الحياة، وهاجس البحث عن هوية وذات، حين اِزداد الإحساس بالرغبة والتّلاشي والاِنكسار فاختاروا الهروب ملاذا، ولجأوا إلى أحضان التّراث، فتبوّء بدوره مكانة محورية في أعمالهم، وكان بمثابة المعادل الموضوعي لآلامهم وآمالهم وهمزة وصل بين الماضي والحاضر والجسر الرابط بينهما. فوُلدت كلمات من رحم هذا الصّراع، كانت أجمل ما حاكته أنامل فنّان، ورُسمت قصائد مزدانة بشتّى الألوان، في محاولة للعثور على تلك الذّات في كنف الأجداد وأمجادهم، فالنّهر لا يملك تغييرا لمجراه، فعادوا إلى الموروث ليكتبوا تجاربهم، ويرسّخوها في خضمّ ذلك الضّياع، فجعلهم الموروث يُبعثون من جديد.

وقد تدفّقت كلماتهم واِلتهبت، حين وضعوا شعرهم في دائرة الاِتّهام، نصوصا جمعت بين الحضور والغياب، مارسوا فيها لعبة التجلّي والاختباء، وانتظار ما لا يأتي، تحت سلطة الإفصاح والكتمان وعزفوا أنشودة لم تكتمل ألحانها بعد، بل مفتوحة على عدّة قراءات، فجعلوا القارئ يبحث عن نصوص مهاجرة، ويملأ الفراغ، ويعود إلى الوراء، لينتشي بلذّة النص، فنشأ تجاوب طاغٍ بين تجارب الشّعراء المعاصرة والموروث، فهما إنجازان متفاوتان ومتباعدان زمانا، ومتجاوران فنا وإحساسا.

تزيّنت القصيدة العربية المعاصرة بحلّة أنيقة تتماشى و روح العصر، وسلك الشّعراء دربا مغايرا عن تلك النّماذج الكلاسيكية، فأجادوا الرّسم بالكلمات، وصاغوا أعذب العبارات، فشكّلوا ترانيم حبلى بشتّى الرّموز والدّلالات. فكان الموروث محطّة مركزية أطالوا الوقوف عندها، فكانت رسائلهم من أبلغ الرسائل،

وأكثرها إيحاءا وتعبيرا وتصويرا، لتنشأ علاقة حميمة بين الموروث والشّعر المعاصر، تفوح بعبق الأصالة و روح العصر، فيجد الشّاعر المعاصر نفسه وجها لوجه أمام كمّ معرفي وتاريخي وحضاري هائل، وتجارب إنسانية تشكّلت معالمها عبر عصور وطبعت فيها الشّعوب بصمتها الخالدة، ويحظى هذا الشّاعر بأن يغرف من هذا النّبع الذي لا ينضب، فولدت أشكال متمردّة ونصوص متمنّعة ومترامية تنتمي إلى جميع العصور.

ولقد كان الموروث الدّيني أهم الخيوط التي نسج منها الشّعراء أثواب قصائدهم واستدعوه ليكون حاضرا في مآدب شعرهم، يزيدها عمقا وبعدا ويضفي عليها هالة من القداسة والخشوع.

وديوان «كاف ونون» للشّاعر التّونسي "علاّلة القنّوني"، عبارة عن ترنيمات شجيّة، ولوحات فنّية ألوانها من عبق الزّمان، تكوّنت ولم تندثر ولم تزل، كلمات تسكن ما بين الأهداب والجفون، آلاما وأحلاما وآمالا، هناك تقبع في عمق الشّاعر الحزين، في الواقع الأليم في زمن الحنين.

عبّر الشّاعر عن اختلاجات مكنونة، وفي نفسه مدفونة، استنجد بالموروث، فاشتعلت نفسه نارًا باحثة عن طهر ونور، حتى يبعث من جديد، تضرّع إلى الإلهة عشتار، واستحضر قوم عاد وثمود، واستدعى موسى وعيسى ويحي وأيّوب، وآدم وحوّاء وقابيل وهابيل وسافر مع السّندباد.

كلّ مظاهر الموروث هذه، طبعت هذا الدّيوان ببصمتها، وأعطته لغة أخرى، نحتته كالفسيفساء، بجودة وإتقان.

في هذا البحث محاولة لسبر أغوار هذا الدّيوان، وإزاحة السّتار عمّا يكتنزه من تجلّيات الموروث الدّيني، مع أنّ الشّاعر لجأ إلى أنواع الموروث الأخرى كوسيلة للتّعبير؛ «كاف ونون» أراد فيه الشّاعر "علالة القنوني" أن يكون.

– الموروث الدّيني في ديوان علاّلة القنّوني:

1- الموروث التّوراتي:

يبدو تأثير الكتاب المقدّس على الشّاعر واضحاً جليًّا في هذا الدّيوان، فبداية، يستحضر الشّاعر "علالة القنوني" قصّة التّكوين في قصيدة عنوانها "كاف ونون"، حينما يقول:

«لمّا التقينا في الضّياع على الجليد ...
كافاً بنون
ظمأ بماء في التحام...
كافا ونون... » [1]

يوجه الشّاعر خطابه إلى محبوبته، تلك التي التقت به في الضّياع، فخلق الوجود من العدم، وولدت الحياة حين التحما، ذلك ما توحيه عبارة "ظمأ بماء في التحام"... فالماء أساس الوجود، وكلّ شيء حي. فلقد جاء في التّوراة ((في البدء خلق الله السّماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة و روح الله يرفّ على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النّور أنّه حسن. وفصل الله بين النّور والظّلمة. ودعا الله النّور نهارًا والظّلمة دعاها ليلاً. وكان مساءً وكان صباح يوماً واحد)) [2].

عندما بُسطت الأرض ورُفعت السّماء، وكانت الأرض خراباً وفراغًا، حينها ارتوى ظمأ الشّاعر بالماء، تلك هي لحظة التّلاقي والالتحام، هما الاثنان، فحين أصدر الأمر "كن" "فيكون" فكان الكون موجودا، وبُعثت الحياة بالقرب بين الشّاعر ومحبوبته.

من ثمّ تحدث الخطيئة، فتسبّب التّفاحة الفجيعة ويكون حينها وقت الرّحيل، يقول الشّاعر:

«مدّي يديك لتقطُفي تفّاحة شهدت ولوج اللّيل أعماق
الصّباح

وتوسّدي بين الأنين وذا الأنين
كاف ونون
دوّامة دومًا تدور فدحرجتنا للوجود ...
لا تسألي ما نحن فيها، ما نريد
غوراً نغور...
حتى نشارف هولها
فتشارف الأغلال فينا والقيود...
ونرى الرّحيل على الرّحيل
هلاّ نثور ؟» [3].

في هذه السّطور، وظّف الشّاعر قصّة "آدم وحوّاء"، وقد ورد ذكرها في التّوراة ((وأخذ الرّب الإله آدم ووضعه في جنّة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرّب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنّة تأكل أكلاً. وأمّا شجرة معرفة الخير والشّر فلا تأكل منها لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت)) [4].

حذّر اللّه آدم في التّوراة من الاقتراب من الشّجرة، وحين خلق حوّاء من ضلع آدم، ليكونا معاً في السّرّاء وفي الضّرّاء، أخذت بقول الحيّة التي أغوتها بقطف الثّمرة المحرّمة كما جاء في التّوراة، فأكلت حواء وأطعمت زوجها آدم معتقديْن بأنّهما سيصبحان إلهيْن، عالميْن بجميع الأمور خيرها وشرّها، فانفتحت عيناهما، ورأيا عورتيْهما فأخفياها.

لقد اتُّهمت حواء بأنّها السّبب الذي دفع آدم إلى معصية أمر ربّه، وانصياعه لرغبتها، أمّا الشّاعر فقد اعتبر أنّ تلك الخطيئة قد بعثتهما من جديد ومنحتهما حياة أخرى، يقول الشّاعر:

«بالقطف ننسى أسرنا ...

فلتغرسي في كلّ درب ضمّنا
تـفّاحـة
حتى إذا كان العبـور
في لحوة السّر الخطير
نشتمّ أنفاس العبيـر...
كـاف ونـون ...
تلك الحياة تبرّجت
بين المفاتن والحنين
فبأيّ آلاء الحياة تكذّبين...؟ » (5)

جعل الشّاعر ذلك الإثم العظيم المتمثّل في المعصية، سببا في التّحرّر وكسر القيود، لا دافعاً للخروج من جنّة النّعيم، إذ منحته الخطيئة حياة جديدة. فآدم بحاجة إلى حواء، ومن دونها يكون وحيدًا، وإن كانت هي من جعلته يخطئ، فهو لا يبالي؛ وذلك ما نجده في قول الشّاعر: "فلتغرسي في كلّ درب ضمّنا تفّاحة"، فالتّفّاحة منحت الشّاعر حياة، فكان بها آدم وكانت بها حبيبته حوّاء، ليكونا معاً في هذه الحياة، يشتمّان معًا أنفاس العبير، لكنّ حبيبة الشّاعر ما تلبث أن تنكر هذه الحقيقة وترفض هذه الحياة.

كما يستحضر الشّاعر شخصيّة دينيّة أخرى، هي شخصيّة "قابيل" التي جاء ذكرها في قصيدة «صالح؟! أم ثمود ؟!» يقول الشّاعر:

«صدّقتُ ما صدّقته
لا صوت يخترق الجمود
إنّي أرى وجها لقابيل ظهر... » (6)

لقد أنجبت حوّاء قابيل ثمّ أخاه هابيل، وممّا جاء في التّوراة أنّ هابيل كان راعيًا للغنم، وقابيل عاملاً في الأرض، فقدّما للإله قربانا، لكن الرّب لم

ينظر إلى قابيل، فاشتعلت في صدره نيران الغيرة من أخيه ((وحدث إذ كانا في الحقل أنّ قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرّب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهاربًا تكون في الأرض...)) [7].

لقد سفك قابيل دم أخيه هابيل، فكان جزاؤه أن عاقبه الإله بأن يكون في الأرض شريدًا، لاجئًا، غريبًا، فتلك الأرض التي كانت يومًا ثمارها تعطيه، قد تخلّت عنه جزاءً لما فعله من سوء الصّنيع.

لعلّ الشّاعر أراد باستحضاره "قابيل" أن يرمز إلى مظاهر الخيانة والغدر، ولعلّ أبلغ مشاهد الخيانة هي خيانة الأرض والوطن من أجل خدمة العدو، ليكون جزاء الخائن في النّهاية مثل جزاء قابيل، لا سماء تقلّه ولا أرض تأويه.

في قصيدة «بغداد»، يتوجّه الشّاعر إلى "منصف الوهايبي"، حزينًا، راثيًا هذه الأمّة، فيستحضر في هذه القصيدة العديد من الشّخصيّات من بينها السّامري، حين يقول الشّاعر:

«وا حسرتاه على أرض الرّشيد غدت *** للسّامريّ حمىً يفني وينتهبُ» [8].

وظّف الشّاعر شخصية "السّامري" بعدما امتلأ صدره ألما، لما يحدث في بغداد قبلة العرب، بعد أن ضاع مجدها والنّسب، فذكر الشّاعر في هذا المشهد الأليم "السّامري" الذي يعيث في أرض العرب فسادًا، يقتل أبناءها وينهب ثرواتها، فـ"السّامري" رمز للفتنة؛ إذ أنّه –في عهد النّبي موسى عليه السّلام– صنع العجل من حُليّ بني إسرائيل حين راح موسى يكلّم ربّه؛

فيتحسّر الشّاعر على الوطن العربي المسفوك دمه، والمنتهكة حُرمته من طرف اليهود حين عبّر عنهم الشّاعر باسم "السّامري" الذي يدعو إلى الفتنة والكفر والعصيان؛ فقد أسقط الشّاعر هذه الشّخصيّة المنبوذة على هذا الزّمن، وكأنّ ذلك الماضي امتداد لهذا الحاضر، فبنو إسرائيل رفضوا الإيمان بموسى، وطلبوا منه أن يروْا ربّه، فأفناهم الله وأهلكهم. ويظلّ اليهود وصْمة عار مهما طال الزّمان، بعث الشّاعر سامريّهم في العراق معادلا لمن أضرموا فيها النّار حتى أصبحت اليوم خرابا توشك أن تنهار، فقام الشّاعر بذكر تلك الآثار، متحسّرا على غياب الأبطال، ووقوع الوطن العربي تحت الذّلّ والهوان.

وفي قصيدة «الوعد»، يبدو الشّاعر متأثّرًا بالكتاب المقدّس، ويتجلّى ذلك في قوله:

«منذرًا جئتكم اليوم وها الأيّام تأتي وترون القول فعلاً
فاحرثوا سبعًا وصلّوا
وازرعوا سبعًا وصوموا
واحصدوا سبعًا وتوبوا
واطمروا محصولكم في الأرض وليبق الذي يبقى بذورًا»[9].

تحيلنا هذه العبارات إلى حلم فرعون الذي لم يجد له تفسيرًا إلاّ عند سيّدنا يوسف، ولقد ورد ذلك في التّوراة ((وإذا هو واقف عند النّهر * وهو ذا سبع بقرات طالعة من النّهر حسنة المنظر وسمينة اللّحم * فارتفعت في روضة ثمّ هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النّهر قبيحة المنظر ورقيقة اللّحم * فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطئ النّهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرّقيقة اللّحم البقرات السّبع الحسنة المنظر

والسّمينة واستيقظ فرعون * ثمّ نام فحلم ثانية* وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحدة سمينة وحسنة * ثمّ هو ذا وراءها فابتلعت السّنابل الرّقيقة السّنابل السّمينة الممتلئة))[10].

كان ذلك حلم فرعون الذي أفزعه وحيّره، وحين دعا يوسف، فسّر له الحلم، بأنّ بلاد مصر ستعاني قحطًا وجوعًا مدّة سبع سنين تلي سبع سنين شبعًا تنسي ما جاء قبلها من جوع. فكان من رأي يوسف التّهيّؤ والاستعداد لتفادي مثل هذا الوضع بالادّخار والزّاد والمؤونة.

يبدو الشّاعر متأثرًا بحلم فرعون في قصّة سيّدنا يوسف (عليه السّلام)، وقد حاول التّعبير عن واقع حضاري راهن، أو وضع سياسيّ مضطرب؛ لقد صدقت نبوءة يوسف، أمّا النّبوءة التي يقصدها الشّاعر فلا تبدو صادقة، كالوعد الكذوب الذي يطلقه الحكّام، ليكون مجرّد كلام، تنثره الرّياح في كلّ مكان.

غيّر الشّاعر من فحوى حلم فرعون الذي ما لبث أن أصبح حقيقة؛ فقد كان ناصحًا حكيمًا لأهل مصر كي يحرثوا ويدّخروا، فجاء بعد القحط خير كثير. أمّا حالة الأوطان العربيّة، فهي حالة جفاف وجدب وانتظار لما يأتي ولا يأتي لسماعهم لوعود الحكّام "احرثوا، ازرعوا، احصدوا، صلّوا، وتوبوا، واطمروا"؛ فجميعها دعوة إلى كتم صوت الشّعوب إلى أجلٍ غير معلوم. ورغم كلّ هذا، لا يزال الأمل موجودا، فبعد الشّدة يأتي الفرج، ولو طال الزّمن، وسيأتي يوم تستقرّ فيه أوضاع البلد، وتشرق الشّمس من جديد رغم كلّ شيء، ورغم كون وعد هؤلاء الحكّام بقدوم الخير كان ولا يزال وعدًا منسيًّا.

يتقمّص الشّاعر شخصيّة النّبي "موسى" عليه السّلام في قصيدة «الحرّية»، حين يذكر عصاه التي عُرف بها عليه السّلام وكانت رفيقته، نستشفّ ذلك من قول الشّاعر:

«لم أجد إلاّ العصـا
كي عليها أتوكّـأ
فإذا تلك العصا قد أمسكت كلّ يدي
ثمّ قادتني فصرتُ
خلفها كالشّاة سائر...
هكذا قد كبّلتني وأنا في القيد حائر...
(.....)
والعصا تهتزّ في كفّي كجانّ ثمّ تهوي
تضرب الأرض فتنساب من الصّخر الجداول
وأراني بالعصا قد صرت ساحرْ
وأنا ذاك النّبي المرتضى» [11].

لقد وهب الله نبيّه "موسى" عليه السّلام حُجّتيْن لتكونا له شاهداً، ودليلاً قائمًا أمام قومه حتى يُؤمنوا به وبربّه، حيث وردت هذه الحادثة في الكتاب المقدّس ((فأجاب موسى وقال ولكن ها هم لا يصدّقونني ولا يسمعون لقولي بل يقولون لم يظهر لك الرّب * فقال له الرّب ما هذه في يدك فقال عصا * فقال اطرحها إلى الأرض * فطرحها إلى الأرض فصارت حيّة * فهرب موسى منها * ثمّ قال الرّب لموسى مدّ يدك وأمسك بذنبها * فمدّ يدهُ وأمسك به * فصارت عصا في يده * لكي يصدّقوا أنّه قد ظهر لك الرّب إله آبائهم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب))[12].

على الرّغم من أنّ الشّاعر لم يذكر اسم "موسى" عليه السّلام صراحة في هذا المقطع، إلاّ أنّه ذكر العصا ومعجزتها، تلك التي أصبحت حيّة تسعى، لتكون معجزة في يد موسى عليه السّلام، حين أبى بنو إسرائيل تصديقه والإيمان به وبرسالته، وبأنّه نبي بعثه ربّه، وجاءهم بالتّقوى والإيمان، فكلّمه ربّه وأمره وأيّده بالمعجزة الكبرى.

ويبدو من هذا النّسيج اللّغوي الذي أجاد الشّاعر نسجه، أنّه استدعى عصا موسى، كمعادل موضوعي، يرغب في دمج أفكاره ومشاعره معه، وفي سكب جلّ تجربته فيه.

ولكي يعبّر الشّاعر عن حالة من التّعب قد اعترتْه، فقد قرّر بأنّ يتّكئ على العصا، لعلّها تساعده؛ فكما كان موسى عليه السّلام، يتّكئ على عصاه، فقد أراد الشّاعر أن تكون له عصا يتكئ عليها، لكنّ الفرق أنّ عصا موسى كانت معجزة في وجه المشركين والكفّار، أمّا عصا الشّاعر فقد كبّلته وقيّدته. لقد قام الشّاعر بتغيير أحداث القصّة وتحويرها ليُضفي عليها مسحة من التّجديد، ويمنحها بُعدًا آخر، مغايرًا لما كان في القصّة الأصليّة، ودلالات وإيحاءات جديدة تعبّر عن العصر الرّاهن.

يقصد الشّاعر بالعصا التي خالها منجدا، عن حالة سياسيّة راهنة، أو جهة سياسيّة أو قائد خاله الشّعب ذلك المنقذ أو المهديّ المنتَظَر –والشّاعر يتحدّث لا محالة بلسان الأمّة والشّعب–، لكنّ الشّاعر أو الشّعب اصطدم بواقع أليم، فكانت تلك العصا أو ذلك القائد خيبة أمل كبيرة، وألما عظيمًا، فما لبث أن انقلب على الشّعب؛ وبدلاً من تحريره وتحقيق آماله وأحلامه، قيّد حرّيته ووضعه في صومعة، وأحكم إغلاقها، بل كتم صوته وخنق أنفاسه؛ فأصبح الشّاعر أو الشّعب، ينصاع وراءه، ويلبّي رغباته، وذلك ما

توحيه عبارة "ثمّ قادتني فصرتُ خلفها كالشّاة سائر، هكذا قد كبّلتني وأنا في القيد حائر".

كانت العصا الملاذ الأخير، والأمل المفقود، لكن خاب أمل الشّعب، وأصبح مستعبدًا حائرًا، سائرًا ثقيل الخطا، فقد كبّلته العصا التي كان يأمل أن تكون خلاصه، وهذا ما أراده الشّاعر في المقطع الأوّل.

أمّا في المقطع الثّاني، فيقرّر الشّاعر عدم الانصياع، وكسر تلك القيود، ويأبى أن يكون ذلك المستعبد، فيرفض الشّعب الذي يتحدّث الشّاعر بلسانه ذلك الوضع؛ ومن الرّفض تولد جميع الأشياء، لتتغيّر كلّ الأحوال، فينقلب السّحر على السّاحر، وتتبدّل جميع الأدوار، ويصبح الشّعب هو صانع القرار، يمتلك الحرّية بيديه؛ ليعلن الشّاعر فوزه على تلك العصا التي جعلته ساحرا، فيصبح ذلك النّبي المُرتضى، ليبدي تأثّره بقصّة سيّدنا موسى، ويبدو هنا التّشابه جليًّا في قوله "وأراني بالعصا قد صِرتُ ساحر، وأنا ذاك النّبي المُرتضى". كما يعلن الشّاعر عن رفضه تلك التّبعية. ومن الرّفض، يُخلق واقع جديد، ويبعث الأمل، فوحده الكفاح يمنح الحرّية، وحين تغتصب الحرّية يصبح الشّعب ثائرًا، ويصبح الشّاعر قاتلاً.

ومن القصص التّوراتيّة التي استلهمها الشّاعر، وفضّل أن يكون لها وقعٌ في قصائده، قصّة سيّدنا أيّوب عليه السّلام، فيقول الشّاعر في قصيدته «بغداد»:

«يا صبر من كمنتْ فيه مصائبه *** والذّل يكبته والقهر والكرب»[13].

أراد الشّاعر استحضار قصّة سيّدنا أيّوب عليه السّلام في هذا البيت، لكنّه لم يذكره باسمه "أيّوب" إنّما ذكر الصّبر، وهي سمة من سمات النّبيّ أيّوب عليه السّلام، التي تميّز وعرف بها، فقد جاء ذكره في الكتاب المقدّس، في سِفر أيّوب وذكرت قصّته. وقد كان أيّوب رجلاً صالحًا تائبًا،

فأراد الرّب أن يختبره في ماله وباب رزقه ليرى مدى صبره، فابتلاه، فكان لا يرى منه إلاّ صبرًا وتجلّدًا، ثمّ ليبتليه من جديد، بمرض ألمّ به فهدّه، لكنّه كان دائم الرّضا طيلة فترة مرضه التي دامت ثماني عشرة سنة، تخلّى فيها عنه الأصحاب والخلّان حتى زوجته التي تسلّل اليأس إلى نفسها من شفائه، لكنّه ظلّ حامدًا، شاكرًا ربّه على البلاء وعلى الخير والشّقاء.

استحضر الشّاعر رمز أيّوب عليه السّلام، حين استعار صفة صبره، ووظّفها بدلالة مغايرة، حيث كان صبر أيّوب شكرا لنِعَم ربّه عليه، وصبرًا على ابتلائه له؛ صبرًا على الأحزان والآلام من دون شكوى، أمّا الشّاعر فقد غيّر هذه الدّلالة، في معرض حديثه عن الأمّة العربيّة، ممّا أصابها من فرقة وشتات، حين هوَت القدس وبغداد، وحين انتهكت الأعراض؛ فيتحسّر الشّاعر على زمن العرب الذي ضاع، وما أصابهم من ذلّ و هَوان، فطال صبرهم، وتناسوا عِزّهم القديم والأمجاد، مهزومين يجرّون أثواب الخيبة والألم، فكان صبر العرب على الأعداء، هوانا وعارا، لعدم قدرتهم على استرجاع الأراضي العربيّة، وهم أوّل من باعها وسلّمها إلى الطّغاة على أطباق من ذهب، حينها كسرت شوكة العرب، وخبت نارهم للأبد، فاستأسد الهرّ كما عبّر الشّاعر، فاستأسد الأعداء على العرب حين رضوا بالذّل، وحين أصبحوا يقاتلون بسيوف من خشب، وأصبحت الأوطان العربيّة تباع في المزاد، لا تجد من يُداوي جروحها، ولا من يلبّي النّداء.

أسقط الشّاعر صبر أيّوب على صبر الأمّة العربيّة، ليعبّر بذلك عن واقع أليم، ويصوّر مشهدًا مشحوناً بجميع معاني الفشل والخيبة والأنين لما أصبح عليه العرب.

2- الموروث الإنجيلي:

يعدّ الكتاب المقدّس (الإنجيل) مصدرًا سخيًّا، استغلّه الشّاعر في هذا الدّيوان، وفق ما يتماشى مع رُؤياه، فنهل منه ما يحتاجه، للتّعبير عن واقعه وعصره، ليعكس ذلك الماضي على الحاضر، ويدمج بينهما ويصوغ ما يتناسب منه مع أفكاره في قالب جديد ومتجدّد وملائم لقضايا هذا العصر لتصبّ في مجراه وتصوّر أحواله وهمومه.

استحضر الشّاعر من النّص الإنجيلي قصّة سيّدنا عيسى المسيح عليه السّلام وصلبه، ففي قصيدة «صالح ؟! أم ثمود ؟!»، يستدعي الشّاعر "المسيح" بذكره اسما، حيث يقول:

«وأنا المسيح مع اليهود
لا أرض لي
لا بحر لي
لا ... أو أثر»[14].

يشبّه الشّاعر نفسه بالمسيح، فيتحدّث بلسانه، ويتقمّص شخصيته، ويرتدي قناعه، ليبيّن أنّ ما حصل مع المسيح قد حصل معه هو أيضا. وقد ورد في إنجيل متّى، حديث عن الخيانة والغدر حين وشى يهوذا الأسخريوطي بالسّيد المسيح: ((وفيما هو يتكلّم إذا يهوذا أحد الإثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشّعب والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبّله هو هو. أمسكوه فللوقت تقدّم إلى يسوع وقال السّلام يا سيّدي وقبّله فقال له يسوع يا صاحب لماذا جئت، حينئذ تقدّموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه...))[15].

كان يهوذا من تلاميذ عيسى، لكنّه قام بغدره وخيانته شرّ خيانة، للإيقاع به وقتله، واتّفق على صلبه، لكنّه نجا لأنّ الرّب أرسل ملاكا لإنقاذه

وتحريره. أمّا يهوذا الخائن فقد شعر بالذّنب لتسليمه روحًا بريئة من غير ذنب فقتل نفسه كما جاء في الكتاب المقدّس.

لقد حاول الشّاعر أن يصل ذلك الماضي بالحاضر، فما حصل قديمًا مع المسيح واليهود، يحصل الآن في البلدان العربيّة، من فتنة وخيانة وتشتيت لشمل العرب الذين قاموا بخيانة أرضهم، كما خان يهوذا سيّده عيسى، فيرى الشّاعر نفسه مسيحَ هذا العصر، ويعبّر عن الوطن المسلوب، والأمل المفقود، حين تتضافر جهود العرب، لتفريق العرب، وليخون بعضهم بعضًا، ويجعلون بأسهم بينهم.

ذلك ما جعل الشّاعر ينطق بلسان المسيح، لعلّه يسكب فيه بعضًا من ذلك الألم والحرقة التي تأكل صدره، وتلك المشاعر التي تتزاحم في قلبه الذي ينبض بحب الوطن. ثمّ يزداد ألم الشّاعر، لينزف وجعه من جديد حين يقول أنّه من دون وطن يحتضنه ويبعث فيه الدّفء، ومن دون بحر ولا أثر، مثله مثل المسيح الذي لم يعد له أثر بعد الصّلب –كما يعتقد المسيحيون–.

يستحضر الشّاعر "المسيح" في موضع آخر من ديوانه في قصيدة «حدّد مقرّك» التي يقول فيها: «فكم جرّعوك بأرضك سمًّا، وكم صلبوك، وكم ذبحوك ككبش الفداء وشُبّهت للبهم جسمًا طريحًا وكنت المسيح فأين الفناء» [16].

يستحضر الشّاعر مرّة أخرى "المسيح" عليه السّلام، ليعبّر عن معاناته. فقد ذكر في "الإنجيل" ما كابده "عيسى" عليه السّلام من شقاء، حين اقتيد إلى الصّلب وما قدّموا له من سمّ ليتجرّعه ثمّ صلبه ((فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية ودعوا عليه كلّ الكتيبة * فعرّوه وألبسوه رداءً قُرمزيًّا وضفّروا إكليلاً من شوك و وضعوه على رأسه وقصبة في يمينه وكانوا

يجثون قدّامه ويستهزئون به قائلين السّلام يا ملك اليهود * وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه * وبعدما استهزؤوا به نزعوا عنه الرّداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصّلب))[17].

كما هو مذكور في "الإنجيل"، أنّ المسيح قد عانى الأمرّيْن من قومه، وتجرّع العذاب ألواناً، أمّا شاعرنا فقد أراد استدعاء هذا المشهد، ليصوّر ذلك العربي اليوم الذي يعيش حالة من الغربة والاغتراب، مشرّدًا ضائعًا وغريبًا، في وطن ليس بوطنه مع قوم ليسُوا قومه. قمّة الظّلم والمعاناة، أن يفترش العربي الأرض بساطًا، ويلتحف السّماء، ويكون من دون مقرّ ولا هويّة، ومن دون عنوان، لاجئًا أينما كان. وقد أسقط الشّاعر دلالة صلب المسيح من طرف قومه على العربي، أو على الوطن العربي الذي يذبح ككبش الفداء، ويقدّم هديّة كالقربان للأعداء؛ لكن الشّاعر ما يلبث أن يؤكّد على صمود المسيح أو الوطن، كالوتد في وجه العواصف الهوجاء، كالصّخرة، كالجبل الشّامخ، ليُبدي الشّاعر بصيصًا من أمل في عبارته «وكنت المسيح فأين الفناء»؛ تلك دلالة على البقاء فالشّاعر يتساءل عن الفناء، فالمسيح اختفى حقًّا واندثر، لكنّه لم يفنَ، إنّما كان اختفاؤه مؤقّتًا، وكذلك الحال بالنّسبة إلى الوطن العربي، فقد ضعف وهان، لكنّه لم يفنَ ولم ولن يزول، وسيبقى صامدًا في وجه اليهود وفي وجه جميع الأعداء.

حاول الشّاعر التّعبير عن التّضحية والفِداء والصّلب التي تخصّ المسيح وحده، وأسقطها على حالة العرب المُزرية في أوطانهم، وليصوّر تلك القوّة الظّالمة التي سلبت العربي جلّ حقوقه وأرضه وانتمائه، فظلّ من دون أرض، بل أضحى غريبًا فيها، فكما صُلب المسيح من طرف قومه، فقد قدّم العرب وطنهم للعدوّ.

لعلّ شخصيّة المسيح وحادثة الصّلب من أبرز التّوظيفات الإنجيلية الجليّة في هذا الدّيوان، وقد أراد الشّاعر إيصال صوته الحزين من خلالها. وقد حمّل كلّ ذلك حرفه الموجوع الذي يئنّ لأَنين وطنه، المفجوع، والمخدوع، والمرمي وسط الذّئاب، كلٌّ ينهش لحمه حينما يشاء.

3- التّوظيف القرآني:

يعجّ ديوان "كاف ونون" بالتّوظيفات القرآنيّة، ليكون للقرآن الكريم حضورٌ لافتٌ فيه، وقد استحضر الشّاعر النّصوص القرآنية مرارًا، سواء من حيث لغة القرآن أو أسلوبه في السّرد والقصّ في بعض السّور والآيات، ليتأكّد لنا تأثّر الشّاعر الكبير بالقرآن الكريم، وتشبّعه بثقافة دينيّة تلهمه الكثير من القصائد، وتكسو كلماته بريقًا قرآنيًّا وتُكسبها طابعًا إسلاميًّا يدلّ على مدى تعلّق الشّاعر بهذا الدّين، ومدى اعتزازه بالقرآن الكريم.

ومن القصص التي استلهمها الشّاعر وشدّتْه قصّة الخلق والتّكوين، فكما ذكرت هذه القصّة في "التّوراة"، فقد وردت في القرآن أيضا، إذ نجد الشّاعر يستحضرها في قصيدة «كاف ونون»، وهي القصيدة التي حمل الدّيوان عنوانها، حيث يقول الشّاعر:

«لمّا التقينا في الضّياع على الجليد ...
كافا بنون
ظمأ بماء في "التحام"...
كاف و نون... » [18].

حين أخرج الله تعالى الكون إلى الوجود وخلقه من العدم أصدر أمره بذلك، كما ورد في القرآن الكريم ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [19]. وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [20].

استعار الشّاعر بعضًا من ألفاظ القرآن الكريم، ويظهر ذلك في عبارة "ظمأ بماء" و"كافاً ونون"، ومن خلال هذه الآيات القرآنيّة، نجد إشارة إلى قدرة الله على خلق الكون، إذ يقول له: "كن فيكون"؛ وخلق من الماء كلّ شيء حيّ. وقد أسقط الشّاعر هاتيْن الدّلالتيْن على حالته، حين يخاطب حبيبته التي ولّد حضورهما والتقاؤهما معًا وجودًا من العدم، تماما مثلما حدث مع الكون.

من ثمّ ينتقل الشّاعر في هذه القصيدة، إلى الحديث عن الخطيئة الأولى التي أخرجت آدم وحوّاء من الجنّة، حين يقول:

«مدّي يديك لتقطفي تفّاحة شهدت ولوج اللّيل أعماق الصّباح» [21]

ثمّ يقول:

«ونرى الرّحيل على الرّحيل» [22]

عبّر الشّاعر عن تلك الخطيئة بلفظة "التّفاحة" و"الرّحيل"، ليُحيل بذلك إلى الذّنب الذي ارتكبته محبوبته، وهي تهمة التصقت بأمّها الأولى حوّاء منذ خروجها وآدم من الجنّة، على الرّغم من اشتراكهما في المعصية، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ

لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[23].

ويقول أيضًا: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[24].

كانت أوّل خطيئة ارتكبها آدم وحوّاء في الوجود حين أغواهما الشّيطان هو الأكل من تلك الشّجرة التي نُهيا عن الاقتراب منها، ولعلّ الشّاعر استحضر هذا الموقف ليعبّر عمّا يحدث في هذا العصر، فالشّيطان الذي أغوى آدم وحوّاء لا بدّ أن يكون تلك الحضارة المزيّفة، أو فردوس الغرب الوهمي، أو طمع الإنسان الذي لا ينتهي وجشعه الدّائم الذي يدفعه إلى ارتكاب الأخطاء، كالصّراع الذي يحدث اليوم، وتلك الحضارة الزّائفة التي جعلت آدم المعاصر يرتكب المعصية تلو الأخرى.

ويختتم الشّاعر قصيدته مخاطبًا محبوبته تلك التي دفعته إلى ارتكاب الخطيئة قائلاً:

«فبأيّ آلاء الحياة تكذّبين... » [25].

استلهم الشّاعر هذه العبارة من القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [26]. إذ يخاطب الله تعالى الإنس والجنّ في سورة "الرّحمن"، ومعناها: بأي نِعَمِ ربّكما تكذّبان، وقد جاء الشّاعر بهذا المدلول، غير أنّه قام بتغييره، ليخاطب محبوبته تلك التي تكذّب وتنكر الحياة التي تولّدت من العدم، وجاءت من الالتحام بينها وبين الشّاعر، إذ بالحبّ تعود الحياة للأرض الموات.

أمّا في قصيدة «صالح ؟! أم ثمود ؟!»، فقد استحضر الشّاعر قصّة سيّدنا صالح، مع أنّه لم يذكره في هذه القصيدة اسما، إلاّ أنّه أورد ذكر النّاقة:

«أفما سمعت رغاءها

و رأيت عاقرها بحزنك ساخرًا »[27]

لقد كفر قوم ثمود بما جاء به النّبي صالح عليه السّلام، وقاموا بعقر النّاقة التي أرسلها الله إليهم، لتكون حجّة ليؤمنوا ويتوبوا، حيث ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [28].

وقال أيضًا: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [29].

كما قال سبحانه: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [30].

من خلال هذه الآيات الكريمة، يتّضح صنيع القوم مع رسولهم صالح الذي جاءهم بالحق والبيّنات، لكنّهم طغوا وتجبّروا وكفروا، وعقروا ناقة الله التي حذّر من مساسها بسوء، فكان عقاب الله الجبار، لتأخذهم صيحة من السّماء وبئس المصير.

حين استحضر الشّاعر ناقة صالح، وحين تناول الحديث عنه، وما لاقاه من بطش قومه وكفرهم، فقد أراد التّعبير عن الخيانة والتّفريق الذي يمارسه العدوّ الصّهيوني على الشّعب الفلسطيني الأعزل، وقد ربط الشّاعر تلك القصّة القديمة لقوم ثمود، بما يقوم به اليهود اليوم؛ ويؤيّد ذلك قول الشّاعر في هذه القصيدة:

«إنّي أرى وجهًا لقابيل ظهر... » [31]

حيث أراد الشّاعر أن يستحضر قابيل ليرمز إلى المعصية والفتنة والغدر والخطيئة حين قتل قابيل أخاه، فقد تضافرت جميع هذه الدّلالات لتمكّن الشّاعر من نسج تلك الخيوط وحبكها ليُخرج صورة اليهودي الخائن. فقد جمع بين قوم ثمود وعقر النّاقة، وبين قابيل وقتله أخاه هابيل ليرمز إلى الشّعب الفلسطيني المشرّد، ويتحدّث عن الإخوة الأعداء.

لكنّ الشّاعر ما يلبث أن يبيّن جزاء الخيانة، والتّجبّر والطّغيان، حيث يقول:

«حجر يصبّ من السّماء
والأرض نار تنفجر» [32]

لقد سلّط الله على قوم ثمود عذابه الجبّار فقضى عليهم واحدًا واحدًا، فلم يبق منهم أحد، كما قال الله تعالى في سورة الفيل: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ [33].

فإن كان جزاء النّبي صالح عليه السّلام الغدر من طرف قومه والفتنة، فقد نالت ثمود جزاءها من العقاب، وهو ما يرجو الشّاعر أن يلحق اليهود جرّاء بغيهم وطغيانهم.

حين نتنقّل بين طيّات هذا الدّيوان، نلمس تأثر الشّاعر بأسلوب القرآن في الكثير من القصائد، لينهل منه بعض الألفاظ، فيقول الشّاعر في قصيدة "كاف ونون":

«الشّمس تجري في خضوع»[34].

لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[35].

تجري الشّمس لمستقرٍّ لها، أي أنّها، تذهب حيث تسجد لله تحت عرشه، وقد استعار الشّاعر هذه الصّورة، ليُبيّن مدى خضوع الشّمس لربّها، ليُصوّر بذلك مظهرًا من مظاهر الخلق والكون الفسيح؛ ثمّ يقول:

«والبحر في صنف التّكبّر والغرور
البحر مسجون حسير»[36].

وقد استلهم الشّاعر لفظة "حسير" من القرآن الكريم، حيث وردت في الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [37].

توحي هذه اللّفظة بمعنى الإعياء والتّعب من كثرة التّكرار، أي تكرار التّجوال بالبصر في خلق الله العظيم الجبّار الذي خلق السّماء ورفعها من دون عماد، وبسط الأرض وفرشها ليكون البصر خاسئًا وحسيرا، ومُتعبًا من كثرة البحث عن عيوب وأخطاء في خلق الله، وقد وظّف الشّاعر ذلك ليعبّر عن البحر، ويُسند إليه صفة التّعب بعد الغرور والتّكبّر، ليغيّر الشّاعر بذلك من الدّلالة ويعكسها، ويُسقطها على الملائكة الذين عبّر عنهم بالشّمس التي تخرّ ساجدة لآدم حين طلب الله منها ذلك؛ أمّا إبليس فقد تجبّر وتكبّر وعصى أمر ربّه وأبى السّجود لآدم، فاستحضر الشّاعر ذلك، عندما وظّف البحر وتجبّره.

يُبدي الشّاعر مجدّدًا تأثّره بلغة القرآن الكريم وأسلوبه، ففي قصيدة «كاليقولا * والشّعراء»، يقول:

«إنّي أحبّ الشّعر صوتًا لا صدى
إنّي أحبّ الشّعر إعجازًا يُرى
إنّي أحبّ الشّعر شمسًا تستوي فوق الثّرى... »[38].

يبدو التّشابه واضحًا في عبارة الشّاعر "شمسًا تستوي فوق الثّرى" مع الآية القرآنيّة: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [39]. والاستواء صفة من صفات الله، تدلّ على العلوّ والرّفعة والسّمو، فجاء الشّاعر بهذه الدّلالة ليطبع بها قوله، ويدعمه ويُؤيّده، ويستعير بذلك صفة الرّفعة والسّمو وينسبها إلى الشّعر.

يتحدّث الشّاعر في هذه القصيدة بلسان كاليقولا، متقمّصًا شخصيّته، ليعتلي عرشه ويستوي ويطلب من الشّعراء قول البديع من الشّعر، وأن يقولوا أعذب كلام، لكنّ "كاليقولا" لم يُعجبه العجب العُجاب، وثار وتسلّط على الشّعراء، ليعبّر الشّاعر عن حالة الشّعراء، بتقمّصه شخصية "كاليقولا"؛ فقد أصبح الشّعراء في هذا الزّمن دُمًى تحرّكهم أيدي الملوك، يقولون ما يُريدونهم أن يقولوا، متى شاء الأمراء يمتنعون ويسكتون عن الكلام المباح، فكلامهم هراء وقضيّتهم هباء، فهُم في أيدي الحكّام جُبناء، يُحاولون كسب الودّ في بلاط هؤلاء، يراهم الشّاعر من دون انتماء، يراهم من هموم الشّعب قد أصبحوا خواء، فإن همّوا بالرّفض أصبحوا فريسة وضحيّة وفداء.

فلم يكن بيد الشّاعر إلّا السّكوت عن هذا الواقع المرير، حين أصبح الحرف مكسبًا، بدلاً من أن يكون سلاحًا يشهره الشّعراء من أجل قضيّة، أصبح الشّعر في هذا الزّمن خوفًا ومهانة، وابتذالاً، بدلا من أن يكون صوتًا وسهمًا، وصرخة ورصاصة تدوّي لتعلن عن الثورة والقتال.

في قصيدة أخرى «أسطورة البحر» يظهر المصدر القرآني، مصدرًا سخيًّا، يمدُّ الشّاعر لغة ثرية، فيقول:

«يقرأ وحي لرمال الكون أن تسجد للبحر خضوعًا فأبت:

((هو من آسن ماء وأنا من ذهب شعّ جلالاً

وسجودي لك يا ربّ تعالى

كيف أحني الرّأس للماء امتثالاً

إذا مسّته نار ضاع في الجوّ اندثارًا...!)) » [40]

لقد خلق الله البحار، وجعلها آية على قدرته وإعجازه، ومن الماء خُلق كلّ شيء حيّ، ويتّضح في هذا المقطع تأثّر الشّاعر بالقرآن الكريم، حين وظّف لفظة "آسن"، التي وردت في قول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [41].

ومعنى لفظة (الآسن) التي وردت في قوله تعالى (الماء الآسن) هي الماء المتعفّن طعمه والرّاكد، فقد وصف الله تعالى ماء الجنّة بأنّه غير آسن، وأنّه عذب فرات لذّة للشّاربين.

أراد الشّاعر بتوظيفه لهذه المفردة أن يُصوّر مشهدًا دراميًّا أبطاله البحر والرّمال، ليعيد تمثيل قصّة الخلق، فأبى الرّمل السّجود للبحر نكاية مدّعيا أنّه ماء عفِن، كدِر، بينما كانت الرّمال من ذهب، فأمرها خالقها أن تكون له بساطًا تحت قدميه كما عبّر الشّاعر، ولمّا لم تمتثل للأمر، طُردت الرّمال وأُبعدت إلى القِفار، فيقول الشّاعر:

«فانزلي بعضك بعضًا حمما

واسكني القفر انعزالاً... » [42].

فما أرادت الرّمال إلاّ الانتقام، فسلّطت عليه الأنهار لتصبّ فيه ويكون لها مأوى.

يُوحي هذا المشهد أيضًا بقصّة الخلق، وقصّة آدم وحوّاء، حين رفض الشّيطان السّجود لآدم. فطرده الله، لكنّه قرّر الانتقام فوسوس لهما ليُخرجهما من الجنّة، فأنزلهما منها إلى الأرض فكان بعضهم لبعض عدوّ، وقصد الشّاعر باستحضاره لهذه القصّة أن يعبّر عن واقع الأمم العربيّة، حين ترضى بالتّفريط في أوطانها، وتقبل بتواجد الغرباء فيها كما حدث مع العراق وفلسطين وغيرها من الدّول العربيّة التي كانت مثل البحر في عظمته وجبروته وقوّته، غير أنّها لمّا فتحت أبوابها للعدوّ واستقبلته، تكدّرت فأصبحت الأنهار القذرة تصبّ فيها؛ وهو ما رمز به الشّاعر إلى الأعداء الذين كانوا يخافون العرب ويرهبونهم، غير أنّ الزّمان ما يلبث أن يدور، ويطعن العرب بخنجر الغدر اللّعين، وتسلب منهم أوطانهم ويغدون من غير وطن. ويخرجون منها مُكرهين مثلما خرج آدم من النّعيم، واغتُصبت حرّيتهم لمّا سمحوا بتجاوز حدودهم.

في قصيدة «الولادة»، استحضر الشّاعر قصّة سيّدنا زكريّا، وما تضمّ في كنفها من عظاتٍ ومعانٍ ودلالات، مستمدّة من القرآن الكريم ومن سورة "مريم" على وجه التّحديد. فيقول الشّاعر:

«وكلّنا يصرخ في شيخ البلى أن انتفض يا شيخ أنجب ولد»[43].

في هذا البيت دلالة على عقم الشّيخ وعدم قدرته على إنجاب الأطفال، ثمّ يعود الشّاعر ويقول:

«يشتعل الشّيب برأسي ساحقًا فيَّ القوى
من أين لي وقد بلغتُ المنتهى
أن أنجب اليوم صبي...؟! »[44]

يقرّ الشّيخ بضعفه في هذه الأبيات، وهذا ما كلّم به زكريّا، ربّه حين قال الله تعالى: ﴿ قال ربّ إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرّأس شيبًا ولم أكن بدعائِك ربّ شقِيّا ﴾[45].

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [46].

لقد استوحى الشّاعر من قصّة سيّدنا زكريّا دلالات عديدة، إذ يقول:

«ويهتف الهاتف: يا شيخ انتفض
بشّرك الآتي بمولود زكيّ
ليس له يا شيخ سمّي»[47].

وقد استحضر الشّاعر عبارات القرآن من خلال قصّة سيّدنا زكريّا، قال تعالى: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا... ﴾[48].

وفحوى قصّة سيّدنا زكريّا أنّه لم ييأس ولم يقنط من رحمة ربّه، فدعاه، فوهبه غلامًا زكيّا سمّاه "يحي"، وقد وظّف الشّاعر ذلك ليرمز إلى البعث والحياة والنّماء بعد الفتور والقحط، ما دام الإنسان مؤمنًا بربّه؛ وذلك ما عبّر عنه الشّاعر في عبارة "يا شيخ، فجرت النّماء...".

لم يغيّر الشّاعر من دلالات الآيات التي عكف على استحضارها في هذه القصيدة، فأبقى عليها مُعبّرا بها عن جميع معاني الخصب والنّماء الكامنة في سيّدنا زكريّا.

كما استحضر الشّاعر دلالات سورة أخرى في هذه القصيدة، لعلّها تتداخل مع الدّلالات الأخرى وتمتزجان معًا، لتعبّرا عن بُعدٍ فنّي وجماليّ، وتلخّصا معنى العطاء، فيقول:

«يا شيخنا السّامي الجليل

ما زال فيك الطّلع يؤتي أُكله»[49].

لجأ الشّاعر إلى سورة الكهف من خلال عبارة "يؤتي أكله"، إذ يقول تعالى: ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾[50].

لقد شحن الشّاعر معاني النّماء والعطاء، وهي نِعَم وضعها الله في تلك الجنّة التي آتت أكلها في كلّ حين؛ إذ يقول الشّاعر إنّ الله قادر على بعث الحياة من العدم، ما دام يوجد هناك أمل. وهنا، تتناشبه هذه القصّة وملامحها مع الأرض الخربة والوطن، وهو وطن الشّاعر "تونس"، فكان لا بدّ أن تعود وتقف من جديد، وتحيل ذلك الدّمار إلى أساس تقوم عليه لتحيا من جديد.

لعلّ من أكثر الموروثات التي استحضرها الشّاعر في ديوان «كاف ونون»، هو الموروث القرآني، حيث استلهم منه الشّاعر، شخصيّات الأنبياء ومواقف وقصصا، فضلاً عن المصطلحات والألفاظ القرآنيّة التي استمدّها الشّاعر "علالة القنوني" من "القرآن الكريم"، ليُثري بها ديوانه، فكان القرآن مصدرًا سخيًّا لا ينضب، ليجني الشّعراء من ثماره، أعذب الكلمات وأبلغ الصّور، وذلك ما قام به الشّاعر "علالة القنوني" حين حاول أن يضع تجاربه، وآلامه القوميّة، وأوجاعه الوطنيّة وأنّات الأوطان العربية، في قالب قرآني، جسّد معاناته وأفكاره وتطلّعاته، وعبّر عنها بأفضل وسائل التّعبير، فكان له القرآن خير معين.

وأهمّ ما خلُصنا إليه في بحثنا هذا هو أنّ الموروث مجال رحب وشاسع، من الصعب الإلمام بجوانبه، فهو مترامي الأطراف، وحفريات تأبى أن تموت،

كما أنه من الصعب حصره وتضييق النطاق عليه في مفهوم واحد زعما أنه شامل.

كان الموروث الدّيني أهم ما هزّ كيان الشّاعر "علالة قنوني" و أثّر في نفسه، فانعكس على قصائد ديوانه "كاف ونون".

لقد جنح الشاعر إلى الترميز، فكان توظيفه للموروث الدّيني غير مباشر أحيانا، بل يكتفي بالإشارة إليه، غير أن توظيفه ينم عن وعي بالدلالة الدّينية.

منح الموروث الديني هذا الديوان بعدا فنيا ودراميا قد توفّرها نصوص أخرى.

أعلن الشّاعر في هذا الدّيوان رفضه التّام لواقعه محاولا إيقاظ الضّمير، وإيجاد أذن صاغية وصدى لأناته.

لم يعبر الشاعر عن تجاربه الذاتية فقط، وإنما صرخ عاليا وعرّى الجرح العربي.

الهوامش والإحالات:

* ديوان «كاف ونون» للشّاعر التّونسي "علالة القنوني"، وهو عضوٌ في اتّحاد الأدباء العرب، وعضوٌ في اتّحاد الكتّاب التّونسيّين، وكذلك عضو في الهيئة المديرة لفرع "بنزرت".
"علالة القنوني" ممّن اتّخذ الكلمة والشّعر سلاحا، ووسيلة للتّعبير والإيحاء.
للشّاعر هذه الآثار: "يرفض البحر أن يكون جدولاً" و"كاف ونون"، وله في انتظار النّشر: "المشط"، "دعوا الطّيور تغنّي"، وهما مسرحيتّان شعريّتان، وأيضاً "رجل الشّعر"، "المنصف الوهّابي بين الصّورة والتّراث"؛ وأخيرًا "بردة العمر".

(1) علالة القنوني: ديوان كاف ونون، منشورات اتّحاد الكتّاب التّونسيّين، الطّبعة الأولى، د.ت، ص 7.
(2) الكتاب المقدّس، سِفر التّكوين، الإصحاح الأول.
(3) علالة القنوني: الدّيوان، ص 7- 8.
(4) الكتاب المقدّس، سِفر التّكوين، الإصحاح الثّاني.
(5) علالة القنوني: كاف و نون، ص 9.
(6) علالة القنوني: كاف ونون، ص:28
(7) الكتاب المقدّس: سِفر التّكوين، الإصحاح الرّابع.
(8) علالة القنوني: " كاف و نون "، ص35.
(9) علالة القنوني: ديوان "كاف ونون"، ص 43.

(10) الكتاب المقدّس: سِفر التّكوين، الإصحاح 41.
(11) علالة القنوني: "كاف ونون"، ص 110 و111.

(12) الكتاب المقدّس: سِفر الخروج، الإصحاح الرّابع.
(13) علالة القنوني: "كاف ونون"، ص 37.
(14) علالة القنوني: "كاف ونون"، ص 30.
(15) الكتاب المقدّس: إنجيل متّى، الإصحاح السّادس والعشرون.
(16) علالة القنوني: "كاف ونون"، ص 64.
(17) الكتاب المقدّس: العهد الجديد، إنجيل متّى، الإصحاح السّابع والعشرون.
(18) علالة القنوني: كاف ونون، ص 7.
(19) القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 117.
(20) سورة الأنبياء، الآية: 30.
(21) علالة القنوني: كاف ونون، ص 7.
(22) المصدر نفسه، ص 8. .
(23) القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 19 إلى 25.
(24) سورة طـهَ، 120
(25) علالة القنوني: كاف ونون، ص 9.
(26) القرآن الكريم: سورة الرّحمن، الآية 13.
(27) القرآن الكريم: سورة الرّحمن، الآية 29.
(28) القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 73.
(29) القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 77.
(30) القرآن الكريم: سورة الشّمس، الآية 13.
(31) علالة القنوني: كاف ونون، ص 28.
(32) المصدر نفسه: ص 30.
(33) القرآن الكريم: سورة الفيل، الآية 3، 4، 5.
(34) علالة القنوني: كاف ونون، ص 8.
(35) القرآن الكريم: سورة يَس، الآية 38.
(36) علالة القنوني: كاف ونون، ص 8.
(37) القرآن الكريم: سورة المُلك، الآية 4.
* كاليقولا: إمبراطور رومانيّ من أشهر الطّغاة الذين عُرفوا بالوحشيّة والتّجبّر، واسمه الحقيقي هو (جايوس)، اِعتلى عرش روما عام 37 حتى 41 ميلادي، أُطلق عليه هذا الاسم الذي يعني الحذاء سخريّة منه.
(38) علالة القنوني: كاف ونون، ص 10.
(39) القرآن الكريم: سورة طَـهَ، الآية 5.
(40) علالة القنوني، كاف ونون، ص 14.
(41) القرآن الكريم: سورة محمّد، الآية 15.
(42) علالة القنوني : كاف ونون، ص 15.
(43) علالة القنوني: كاف ونون، ص 54.
(44) المصدر السّابق، ص 55.

(45) القرآن الكريم: سورة مريم، الآية 4.
(46) القرآن الكريم: سورة مريم، الآية 8.
(47) علالة القنوني: كاف ونون، ص 35.
(48) القرآن الكريم: سورة مريم، الآية 7.
(49) علالة القنوني: كاف ونون، ص 54.
(50) القرآن الكريم: سورة الكهف، الآية 33.